الجنائن المعلقة وعلاقتها بثلاجة القصر الجنوبي في بابل

الدكتور فوزي رشيد
قسم التاريخ
كلية الأداب
جامعة بغداد

لقد تشكك العديد من الباحثين في الإعتقاد الذي طرحه المنقب الألماني «كولدفي» في عام 1912م، والذي اعتبر فيه بيت الأقبيه، الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الجنوبي العائد إلى الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني 604- 562ق.م، على أنه بقايا الجنائن المعلقة ومع هذا التشكيك في رأي «كولدفي» إلا أن معظم المهتمين بالموضوع قد استمروا معتقدين باحتواء مدينة بابل على الجنائن المعلقة، لأن المؤرخين الكلاسيكيين الذين ذكروا الجنائن المعلقة قد اعتمدوا في كتاباتهم على كتابات كانت معاصرة للفترة التي كانت فيها الجنائن المعلقة لاتزال قائمة، حيث أشار «كولدفي» بأن «ديدور»، الذي عاش في زمن القيصر يوليوس وأغسطس قد أعتمد فيما كتبه عن الجنائن المعلقة على «كتاسيوس- KTESIAS»، الذي كان يعمل طبيباً في البلاط الفارسي زمن كورش الثاني 558- 520ق.م.

كما أن فلافسيوس جوزيفوس- FLAVIUS JOSEPHUS، الذي ولد عام 27 بعد الميلاد قد أعتمد في كتابته عن الجنائن المعلقة على الكاهن البابلي برعوشا (بيروسوس-BEROSOS) (1) أما سترابون- «STRABO» الذي أعتبر الجنائن المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع، فقد ولد عام 60 ق.م واعتمد فيما كتبه على أحد كتاب الإسكندر المقدوني المعمورين(2) ولذلك فإن كولدفي وبقية الباحثين الأثاريين وجدوا أمامهم معلومات عن الجنائن المعلقة صادرة عن كتاب ذوي مسؤولية ومعتمدين فيما كتبوا على مصادر يمكن أن نعتبر بعضها معاصرة تقريباً لفترة الجنائن المعلقة، وإضافة إلى ذلك ليس معقولاً وليس من صالح هؤلاء الكتاب الكلاسيكيين كذلك أن ينسبوا لبلد غير بلدهم عجيبة من عجائب الدنيا، ما لم تك هناك أدلة كافية على وجود تلك العجيبة حقاً وحقيقة.

وعلاوة على ذلك فقد ربط هؤلاء الكتاب الكلاسيكيين الجنائن المعلقة بالملكة «سميراميس» التي أثبتت المعلومات الأثارية والتاريخية وجود هذه المرأة الحقيقي، حيث تشير تلك المعلومات بأن الألم الحقيقي لسميراميس هو سمّورامات (ويعني الإسم «محبوبة الحمام») وكانت زوجة للملك الأشوري «شمشي-ادد» الخامس 822-811ق.م، وتوفي زوجها وابنها «ادد-نيراري» الثالث 811-782، لا

يزال صغير السن، فتولت الحكم لمدة خمس سنوات وصية على إبنها، وأقامت أثناء حكمها مسلة في مدينة أشور عثرت عليها البعثة الألمانية التي نقبت في المدينة المذكورة، وعثر أيضاً على تمثلان في مدينة نمرود يعودان بتاريخهما إلى فترة حكم الملكة سمّورامات(2).

مما تقدم يبدو واضحاً بأن كولدفي وبقية الباحثين الأثاريين الذين خالفوه في رأيه هم على حق عندما اعتقدوا بضرورة وجود الجنائن المعلقة في بابل. والسبب الذي دفع كولدفي لأن يعتقد بأن بيت الأقبية في القصر الجنوبي يمثل بقايا الجنائن المعلقة يعتمد كذلك على الكتاب الكلاسيكيين، لأنهم أشاروا إلى أن الجنائن المعلقة كانت مقامة فوق بناء مؤلف من عدة أقبية، يتشابه في وصفه مع وصف بقايا بيت الأقبية(4)

وفيما يخص السبب الذي دعى علماء الأثار المعاصرين لعدم تقبل رأي المنقب الألماني كولدفي، فإنه يعود إلى مخطط بناء بيت الأقبية، لأن هذا المخطط لا يوحي على الإطلاق بأن مرافقه هي لخدمة الجنائن المعلقة التي قيل أنها تقع فوقه، بل يوحي أن لهذا البناء وظيفة خاصة به. وإضافة إلى ذلك فلو كانت الجنائن المعلقة بالوصف الذي ذكره سترابون مقامة فعلاً فوق بيت الأقبية لأثر ارتفاعها العالي على فضاءات القصر الأخرى وعلى شارع الموكب المجاور لها كذلك، وهذا ما لا يمكن تقبله، ولذلك أخذوا يفتشون عن الجنائن المعلقة في مكان أخر من مدينة بابل.

والحقيقة التي يجب أن تقال هي أن علماء الأثار المعاصرين وعلى رأسهم الدكتور مؤيد سعيد محقين تماماً بما ذهبوا إليه عندما أعتبروا بيت الأقبية ما هو إلا المخازن الخاصة بالقصر الجنوبي(5). ولكن الموضوع الذي لم يحدد بعد هو نوعية المواد التي كانت تخزن في بيت الأقبية، لأن الواقع يؤكد على أن اختلاف المواد التي يحتاج الإنسان إلى خزنها قد فرضت كل واحدة منها مخزناً يتلائم في تصميمه مع طبيعة تلك المادة، فخزن الحبوب وبقية المواد الغذائية تحتاج مخازنها إلى مواصفات لا تتطلبها المخازن الخاصة بالمواد الإنشائية، ومخازن الأسلحة تحتاج إلى مواصفات تختلف إلى حدٍ ما عن المواصفات الخاصة بمخازن الزيوت والشراب وهكذا. وإذا نظرنا إلى مخطط بيت الأقبية فإنه يتألف من قسمين متداخلين نصطلح عليهما بأسمى «النواة» للبناء الداخلي و«القشرة» للبناء الخارجي المحيط بالنواة، وتبلغ مساحة النواة 28 x 28 تقريباً بينما المساحة الكلية لكل المبنى (النوات والقشرة) 41 x 40م تقريباً. وبناء النواة يتكون من ممر طويل تتوزع على ضلعيه مداخل تؤدي إلى سبع غرف طولية على كل جانب. ويحيط بكل النواة جدار فيه فتحة لباب واحدة من الضلع الجنوبية(6). والنواة كما يبدو من صيانتها ومما ذكره كولدفي عنها، فهي لا تحتوي على أية فتحة للضياء والهواء، وإضافة إلى ذلك يفصل النواة عن القشرة المتكونة من 26 إلى 27 غرفة مختلفة المساحات والأشكال ممر يدور حول النواة.

يبدو من هذا المخطط الذي تم وصفه بأن المعمار الذي صممه قد حاول أن يوفر العزل الحراري الكافي للنواة وذلك من خلال الممر والقشرة المحيطان بالنواة، لكي لا تتأثر بالجو الخارجي المحيط ببيت الأقبية، وحاول كذلك أن يجعلها مظلمة غير متأثرة لا بالضوء ولا بالهواء، وإن دل هذا الإجراء على شيء فإنما يدل على أن تصميم بيت الأقبية يشابه إلى حدٍ كبير تصميم البراد (=الترمس) والثلاجة.

والأن وبعد أن تعرفنا على أسلوب تصميم بيت الأقبيّه، علينا أن نتسائل عن نوعية المادة التي كانت تخزن في هذا البيت وبالأخص في الأقبية، التي تمثل نواة بيت الأقبية. بلا شك لا يمكننا أن نفكر بمواد عضوية كالحنطة والشعير مثلاً لأنها تتعفن وهي بعيدة عن الضياء والهواء، ولهذا علينا أن نفتش عن مادة تخشى الضوء والهواء. وعند البحث عن مادة من هذا النوع فلا يوجد أمامنا سوى مادة الثلج، التي كانت ضرورية لإنتاج الماء البارد الذي كان يستخدم لأغراض الملك وحاشيته ولتقديمه أيضاً من قبل الملك إلى الآلهة ضمن الطقوس الدينية. وأقدم إشارة وصلت إلينا تؤكد على أن الماء البارد كان يقدم إلى الآلهة وردت في كتابات الأميركوديا 2144- 2124ق.م، وهي كالآتي:-

ENSI- KE GA- TUM- DU- SE KI. NA- A- NE BA- GUB

دخل الأمير إلى الآلهة كانومدو، إلى مخدعها،

NINDA GIS BI- TAG A- SED I- DE

وقدم خبزاً وماءاً بارداً (قرباناً لها) ومما يزيد التأكيد على ذلك هي الرسالة التي عثر عليها في موقع تل الرماح والمرقمة TR- 4.97. حيث جاء في بدايتها النص التالي:-

ana Iltani gibi- ma umma Agba- hammu- ma suripa sa qatara liptû- ma iltu, atti u Belassunu Sittê u ana Suripi qâtum lù nasrat

«قل إلى ايلتاني: هكذا قباخمّو (يقول): دعهم يفتحوا (مخزن) ثلج مدينة قطارا (الإسم الحالي تيرقا)، الألهة وأنتِ وبيلا سّونو، اشربوا بانتظام وتأكدي بأن الثلج محروس»(7).

وقد تبين أيضاً من كتابة نشرها الأستاذ «نيكول- J. NOUGAYROL» بأن مخزن ثلج مدينة قطارا (=تيرقا) قد شيده ملك مدينة ماري المدعو «زميريليم»، المعاصر إلى الملك حمورابي، وإضافة إلى ذلك فقد وردت في الرسالة السادسة من المجلد السادس الخاص برسائل ماري، إشارة على أن الثلج والشراب كانا يخزنا سويه(9)، وهذه بالطبع إشارة صريحة إلى وجود مخزن للثلج في مدينة ماري أيضاً.

والمعلومات التاريخية تؤكد أن مخازن الثلج هذه قد استمرت إلى فترات متأخرة، حيث ذكر المؤرخان العميري والزهيري، بأن مدينة القاهرة كانت تحتوي في العصر المملوكي على مخازن للثلج، تسمى «شراب خانه» والمسؤول عنها كان يسمى «الثلاّج»(10).

والأن بعد أن حددنا هوية بيت الأقبية علينا أن نبين ما هو مصير الجنائن المعلقة، فهل كانت فعلاً فوق بيت الأقبية (= ثلاجة القصر الجنوبي) أم أنها كانت في مكان أخر من بابل؟ للجواب على ذلك نقول: إن وظيفة بيت الأقبية وكتابات المؤرخين التي ذكرت أن الجنائن المعلقة كانت مقامة فوق بناء مؤلف من عدة أقبية، تفرض علينا التأكيد بأن الجنائن المعلقة كانت مقامة فعلاً فوق بيت الأقبية، حيث لو نظرنا إلى النواة في بيت الأقبية فسوف نجد أنها معزولة عزلاً حرارياً جيداً من جوانبها الأربعة ومن أسفلها كذلك، والذي يعوزها لكي تصبح براداً بمعنى الكلمة هو أن تعزل حرارياً من ناحية السقف، ولذلك نعتقد بأن

المعمار الذي صمم بيت الأقبية قد وضع فوق السقف طبقة من التراب قد تصل في سمكها إلى الستين سنتمتراً، وقام كذلك بزارعة هذه الطبقة بالأشجار لكي يعزل السقف حرارياً ويمنع أشعة الشمس التي تسلط عليه في موسم الحر من إذابة الثلج المخزون في نواة بيت الأقبية.

علماً أننا حتى الوقت الحاضر نغطي سطوح منازلنا بطبقة من التراب لكي تمنع هذه الطبقة حرارة الشمس من أن تؤثر كثيراً على داخل البيوت. فكم يكون سمك هذه الطبقة من التراب إذا كان تحتها مخزن للثلج؟ فبالتأكيد يزيد سمكها على النصف متر، لأن مثل هذا السمك مناسب لغرس الأشجار عليه، وبذلك تكون خلال هذه الأشجار والطبقة الترابية المسقية بالماء مانعاً جيداً يحمي الثلج من حرارة الشمس المسلطة على سقف بيت الأقبية. وإضافة إلى ذلك نعتقد بأن مستوى الطبقة الترابية التي كانت فوق مرافق القشرة، لأن النواة التي تحتوي على الثلج تحتاج ولا شك إلى عزل حراري أكبر، وبهذا تحول سطح الثلاجة إلى جنائن معلقة (أنظر الشكل المرفق).

وهذه الحقيقة هي التي استوجبت أن يكون أعلى هذا البناء على شكل أقبية، كي يتمكن من حمل هذه الطبقة الترابية والأشجار المزروعة عليها. والبئر التي عثر عليها في المبنى المذكور كافية لسقي حديقة مساحتها 40 x 41م حتى لو استخدم الدلو لغرض رفع الماء إليها.

مما تقدم يبدو واضحاً أن الحديقة التي كانت فوق بيت الأقبية لا تساوي بحجمها حجم الجنائن المعلقة التي تصورها سترابون واعتبرها عجيبة من عجائب الدنيا السبع.

ولتوضيح هذا الموضوع أن المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد على أن جميع المصادر التي دونت منذ زمن الملك نبوخذ نصر الثاني وحتى زمن برعوشا البابلي (=بيروسيس) الذي كان يعمل كاهناً في معبد الإله «بيل» في زمن الإسكندر المقدوني(11)، لم تتحدث إطلاقاً عن الجنائن المعلقة، لأن تلك الجنائن لم تكن من طبقات عديدة، بل كانت حديقة من طبقتين على أكثر الظن فوق بناء بيت الأقبية، ولكن بعد أن تهدم بناء بيت الأقبية وزوال معظم معالم الحديقة التي كانت فوقه بدأت الأخبار المتناقلة عنها تجسم حقيقتها وخاصة تلك الأخبار التي تناقلها الكتاب الكلاسيكيين. وقد تأكدت لنا حقيقتها وخاصة تلك الأخبار التي تناقلها الكتاب الكلاسيكيين وقد تأكدت لنا حقيقة هذه المبالغات عندما تحدثوا عن سميراميس (=سمّورامات) التي ربطوا علاقتها بالجنائن المعلقة وحولوها إلى بطلة أسطورية، ولذلك ليس غريباً على الإطلاق أن يجعلوا من هذه الحديقة المعلقة عدة حدائق.

والواقع لو علم سترابون بسبب إقامة هذه الحديقة المعلقة، أي أنها لفرض عزل ثلاجة القصر الجنوبي عن حرارة الشمس لاعتبر بيت الأقبية وما فوقه عجيبة العجائب، لأنه الإبداع بعينيه فعلاً أن يتمكن المهندس البابلي من تصميم بناء لا يختلف بوظيفته عن وظيفة الثلاجات في الوقت الحاضر، حيث أن النواة (=بيت الأقبية) يمثل مجمدة الثلاجة، والمرافق المحيطة بالنواة تمثل بقية أجزاء الثلاجة التي تحفظ فيها المواد التي يحتاج خزنها إلى جو بارد، وفي مقدمة هذه المواد هو الشراب.

هذا ولبيان عملية خزن الثلج داخل هذه الأقبية نقول: إن نتائج التقنيات التي أجريت في بيت الأقبية قد كشفت عن أحجار كلسية طول الواحدة منها يساوي تقريباً لفتحة القبو الواحد وسمكها حوالي 20 سم (12). ووضيفة هذه الأحجار هي لتغطية فتحات الأقبية بعد بداية إدخال الثلج إليه، وبعد ذلك يقوم

العمال بوضع الثلج داخله، وعندما يبلغ ارتفاع الثلج داخل القبو إلى ارتفاع الحجرة الأولى توضع الحجرة الثانية فوق الأولى وبعدها يبدأ العمال مجرداً بوضع الثلج داخل القبو، وحينما يصل الثلج إلى ارتفاع الحجرة الثانية توضع الحجرة الثالثة وهكذا حتى يصل الثلج في ارتفاعه إلى سقف القبو... وعندما يراد إخراج الثلج وقت الحاجة إليه ترفع الحجرة الموضوعة في قمة الأحجار ثم يبدأ العمال باستخراج الثلج الموجود في أعلى القبو، وبعد نفاذ الثلج الذي كان محصوراً خلف الحجرة العلوية ترفع الحجرة التي تليها وهكذا حتى الوصول إلى قاع القبو.

والثلج كان يجلب طبعاً في فصل الشتاء من المناطق الجبلية بواسطة الحيوانات وربما بواسطة الأكلاك أيضاً ويخزن في براد ثلاجة القصر الجنوبي (=بيت الأقبية)، حتى يحمل موسم الحر، الذي تبدأ فيه حاجة الإنسان إلى الماء البارد وحرارة صيف العراق جعلت من الماء البارد أفضل قربان يقدم إلى الآلهة، ولذلك أشارت النصوص إلى أن الملوك والحكام كانوا يقدمون الماء البارد إلى الآلهة عند زيارتها في معابدها.

هذا وإذا نظرنا مجدداً إلى مخطط بيت الأقبية وإلى مداخله فسوف نجد بأن البوابة رقم(1) المطلة على شارع الموكب هي لغرض إدخال الثلج، أما المدخلان(2) و(2) فهما لغرض إخراج الثلج وإخراج المواد الأخرى المخزونة في الثلاجة لأغراض الملك وحاشيته.

مصادر البحث

1- القلاع الملكية في بابل، الجزء الأول، القلعة الجنوبية، تأليف روبرت كولدفي، ترجمة الدكتورة نوال خورشيد سعيد، ص 49.

2- نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

3- ثلما سيتيان عقراوي، المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، رسالة ماجستير، كانون الأول 1970، ص 299-200

4- أنظر بحث الأستاذ بوست كيت- N. POSTGATE، الذي ألقاه في بابل عن وظيفة بيت الأقبية

5- مجلة سومر، الجزء الأول والثاني- المجلد الرابع والثلاثون، الدكتور مؤيد سعيد- أين هي الجنائن المعلقة، ص 65- 57.

6- الدكتور مؤيد سعيد، المصدر السابق، ص 57.

7- أنظر كتابات الأمير كوديا، الأسطوانة « A » الأسطر 8، 4، و25 من العمود الثاني الخاص بزيارة الأمير كوديا للألهة كما توحدو.

8- ST. PAGE, ACTES DE LA XVIIe RENCONTRE ASSYRIOLOGIQUE INTERNATIONALE, BRUXELLES, 30JUIN- 4 JUILLET, 1969, P.181.

9- أنظر ST. PAGE، المصدر السابق، ص 181، ملاحظة رقم (2)

10- أنظر ST. PAGE، المصدر السابق، ص 182

11- أنظر روبرت كولدفي، المصدر السابق، ص 49.

12- هذه المقاييس نتيجة مشاهدة ميدانية لأحد هذه الأحجار الموجودة إلى القرب من بيت الأقبية

13- أنظر كتابات كوديا، المصدر السابق ونفس الأسطر.